فنون العصر الشبيه بالتاريخي (3500 ق. م – 2800 ق. م)

(فن العمارة – فن النحت)

تمثل هذه الفترة الزمنية الممتدة بين منتصف الألف الرابع ق. م. وحتى الربع الأول من الألف الثالث ق. م.، مرحلة إنتقالية بين فنون العصور الحجرية قبل التاريخ. ولقد اختلف الباحثون في تسميتهم لهذه الفترة. فبعضهم سماها بالعصر الشبيه بالكتابي أو الشبيه بالتاريخي نظراً لأن اختراع الكتابة كوسيلة لتدوين قد حدث لأول مرة في هذا العصر، إلا أنها كانت كتابة صورة بسيطة لم تستخدم لتدوين الأمور المهمة كاختيار المعارك وغيرها من الأحداث السياسية، وإنما استخدمت لتدوين أشياء اقتصادية تتعلق بأملاك المعابد وأملاك الأفراد، أي أنها لم تستخدم بعد لغرض التدوين التاريخي، لهذا جاءت تسمية هذا العصر بالعصر الشبيه بالتاريخي.

ومن الباحثين من اختار تسمية سياسة لهذه الفترة، حيث سموها بعصر قبل السلالات، ويقصدون بذلك إلى أنها الفترة الزمنية التي سبقت قيام سلالات الحكام المتتابعة أيام السومريين في أوائل العصور التاريخية.

ومهما تعددت تسميات الباحثين لهذه الفترة، فإنها شهدت ازدهاراً حضارياً ملحوظاً نتيجة توسع الزراعة وحسن إدارة وتنظيم التجارة، فقد أصبحت القرى الزراعية التي تركزت على مجاري المياه في العصر السابق، عبارة عن دويلات صغيرة في هذا العصر، وكانت كل دويلة مدنية محمية بسور خارجي ومستقلة سياسياً واقتصادياً عن الأخريات، ويحكم كل منها حاكم من بين سكانها باعتباره الأقوى والأجدر بالقيادة. وانتشرت حضارة هذا العصر في كل أجزاء العراق وامتدت إلى المناطق الشمالية الغربية من العراق. إلا أنها ازدهرت بصورة رئيسية في مدينتين نالتا شهرة واسعة في عالم الفنون القديمة، وهما مدينة الوركاء عاصمة البطل كلكامش (وتقع ضمن حدود محافظة المثنى حاليا) ومدينة جمدة نصر (وتقع ضمن حدود محافظة باب في الوقت الحاضر). ولذلك يسمى هذا العصر أيضا بعصر الوركاء وجمدة نصر– ويفضل الاختصاصيون في الوقت الحاضر أن يدرسوا فنون هاتين المدينتين سوية لأن من العسير جدا رسم خط فاصل واضح بينهما. سوف نتعقب رأي مثل هؤلاء الاقتصاديين دون أن نركز على المناقشات المملة وغير المثمرة التي تتناول التصدي لنظريات متصارعة.

في هذا العصر اكتسب الفن العراقي القديم وبصورة لا تقبل الشك أحد أركانه المهمة. في شغفه بالديانة وتصويره للطقوس والشعائر الدينية، فمن طريقة الفن وحده اتخذ هذا العالم الوهمي شكله الحقيقي في مخيلة أناس ذلك العصر. وبدت معالمه وخطوطه العامة واضحة بدليل ما شيد من معابد فخمة تكريما للآلهة، وما صور في فعاليات ذات طبيعة دينية في النحت والرسم. ونظراً للتأثير الواضح والمهم الذي تركته الديانة القديمة في أعمال فناني هذا العصر والعصور اللاحقة. فلابد لنا من التعريف وبشكل سريع بالقواعد والأصول العامة لهذه الديانة والتي سيتكرر كثير من مبادئها في مواضيع أهم النماذج الفنية.

كان العراقيون القدماء يرون في قوى الطبيعة المختلفة @ علوية تنتمي إلى عالم ما وراء الطبيعة، جسدوها بهيئة آلهة ومثلوها بتماثيل وقدموا لها الطقوس في معابدها من أجل خلق أو إيجاد علاقة طيبة مع مثل هذه القوى التي تتحكم بشكل مباشر في فعالياتهم الحياتية المختلفة، وقوى الطبيعة المختلفة هذه تسمل باختصار على السماء والأرض والهواء والماء والشمس والقمر والرعد والمطر والعواصف...الخ، والأكثر من ذلك أنهم جعلوا لكل ظاهرة لها نشاط في الحياة إلهاً معينا يتحكم فيه. لذلك كانت هذه الديانة تتصف بوجود عدد كبير من الآلهة التي تشبه البشر في صفاتها فمثلها الفنانون في منحوتاتهم ورسومهم على هيئة البشر مع وجود بعض الاختلافات البسيطة من أجل رفعها عن عالم الإنسان كي يقنعوا أنفسهم بعبادتها.

وكذلك الآلهة تسكن السماء وتنزل إذا رغبت إلى الأرض لتسكن مؤقتاً في المعابد التي بناها الإنسان لسكناها. وأوجبت الآلهة على الإنسان عبادتها ورعايتها بتقديم القرابين والهدايا لها في معابدها في المناسبات الدينية المختلفة، وهذا هو الغرض الرئيسي الذي خلق من أجله الإنسان حسب ما ترويه الأساطير العراقية القديمة. ويخدم الآلهة في معابدها طبقة متنفذة من الكهنة أكثر الفنانون فيه تصويرهم في المواضيع ذات الصفة الدينية. وأشهر الآلهة وأكثرها ظهوراً في الأعمال الفنية الإله (آنو) إله السماء والإله (اناول) إله الهواء والإله (ايا) او (انكي) إله المياه والإله (شمش) إله الشمس والإله سن (إله القمر) والإله (أنانا) أو (عشتار) إلهة الحب والزواج وآلهة الحرب في بعض الأحيان والآله (@) إله الزوابع والأمطار وغيرها.

ولم يعتقد العراقيون القدماء بحياة ثانية بعد الموت. كما اعتقد ذلك قدماء المصريين. كذلك لم يظهر في لغتهم الفنية التصويرية ما يشير إلى طقوس أو فعاليات جنائزية تتعلق بالدفن

وزيارة القبور. فالحياة الدنيا هي كل شيء حيث يجازي فيها المحسن والمسيء نتيجة ما ارتكبه من أعمال صالحة أو سيئة، إلا أن سعادة الأرواح بعد الموت كانت تتوقف على ما يبذله الأحياء منه عناية دفن الموتى وعلى ما يودع في القبور من هدايا.

يعتبر العصر الشبيه بالتاريخي من الفترات الفنية الغنية بنتاجاتها الفنية قياساً بحضور قبل التاريخ المنصرمة. ففي هذا العصر بنيت الأبنية التذكارية الضخمة، وبدأ نوع من التحسس الجمالي في خواص الأبنية المعمارية. وفي هذا العصر أيضاً انجزت أروع أعمال النحت المجسم، وصورت فعاليات الإنسان المتنوعة في أكثر مشاهد النحت البارز إبداعاً، ولم يعد الرسام مكتفيا في مساحاته التصويرية بسطوح الفخاريات بل أوجد مجالاً رحباً آخراً ألا وهو سطوح الجدران، فأنتجت بذلك أقدم الجداريات المرسومة في تاريخ العراق الفني.

فن العمارة:

ان اهم ما يميز ابنية هذا العصر هو تطور أبنية المعابد التي أولاها المعماريون كل اهتمامهم باعتبارها بيوت الالهة وأماكن عبادتها, فجعل لبعضها أسس حجرية على الرغم من افتقار بيئة المنطقة للأحجار. كي تكتسب قوة ومتانة وتخلد لأطول فترة زمنية فنتفق بذلك مع خلود الالهة. ومما تجدر ملاحظته هو تشابه المخططات الهندسية لمعابد هذا العصر مه معابد الفترة السابقة, كما يشير الى تواصل واستمرار اهم قوانين الفن المعماري العراقي القديم. ويعبر بذلك عن اصالة الحضارة العراقية القديمة منه دون وجود أي نظام معماري يدخله مهاجر غريب.

تتصنف معابد العصر الشبيه بالتاريخي بكونها ذات اشكال هندسية منتظمة, تكون في اغلب الأحوال مستطيلة الشكل. وصغيرة الحجم نوعاً ما, وتبني على دِكة او مصطبة ترصف من اللبن, أي انها كانت مرتفعة عن سطح الأرض, فهنا يتوفر لنا اقدم دليل على فكرة بناء الزقورات في العراق القديم, فمثل هذه الأبنية التواقة الى السماء تدلل على عقيدة متوهجة, ذلك ان الناس واعتباراً من منتصف الالف الرابع ق.م. فصاعداً, كانوا يرغبون بصفة ثابتة في بناء سلم بين الأرض والسماء, كي ييسروا بهذا هبوط آلهتهم بغض النظر عن كلفة ذلك العمل ومشاق بنائه.

وتبنى المعابد بنوع من اللبن أطلق عليه مؤرخو الفن الالمان اسم (ريمجين) وهو لبن مستطيل الشكل مربع المقطع تقريباً. ويحيط بالمعابد عادة جدار خارجي ضخم نوعاً ما يفصل حرم الاله عن العالم الدنيوي, تتجه اضلاعه نحوز الجهات الأربع, ويكون مزيناً من الخارج بعدد من الطلعات والدخلات وضيفتها اسناد الجدار معماراً, وتجميل وجهه الخارجي عن طريق عكس الظلال وتتوسط البناء ساحة مكشوفة صغيرة طويلة الشكل, يحيط بها على طول ضلعيها الطويلين عدد من الغرف الصغيرة المسقفة, يخصص أهمها لوضع تمثال الاله المعبود, اما الاخريات فتكرس لسكن الكهنة وخزن حاجيات المعبد.

لقد أبدع المعماريون العراقيون القدماء في إيجاد وسيلة تعتبر جديدة حقاً في تجميل واجهات المعابد الخارجية, اذ كانوا يغطون الوجوه الخارجية للجدران بطبقة من الجص الناصع البياض, كان يجدد باستمرار, وبذلك استطاعوا ان يضيفوا على البناء بريقاً مدهشاً يزيد من جماله ويقوي صموده امام تأثيرات العوامل الطبيعية. وفي بعض الأحيان كانوا لا يكتفون بهذا, بل اوجدوا وسيلة أخرى في تزيين الواجهات بزخارف ملونة بأسلوب ذكي, وذلك باستخدام مسامير فخارية طويلة نوعا ما وعريضة الرؤوس, كانت رؤوسها تلون بالألوان كالأسود والاحمر والأبيض, وتغرس بأنظمة هندسية متنوعة على واجهات الأبنية لتؤلف زخارف هندسية ملونة رائعة الجمال تعطي واجهات المعابد وجدرانها جمالاً اخاذاً.

ولقد نالت مدينة الوركاء شهرة واسعة في مجال العمارة, اذ انها أخرجت الى النور ضمن اسوارها الأسطورية أوسع وافخم واجمل الأبنية الدينية التي تم اكتشافها حتى الان, اشهرها معبد الاله آنو (المعبد الأبيض) ومعابد الالهة انانا (عشتار). .

فن النحت:

شهد هذا العصر وضه الأسس الأولى لفن النحت في العراق القديم فقد نوع النحات اعماله بين نماذج للنحت المجسم ونماذج أخرى للمنحت البارز, معتمداً على مواد خام مختلفة أهمها مادة الحجر, وقد واجه نحات هذا العصر مشكلة مهمة عي عدم توفر الحجر في القسم الجنوبي من العراق, وقد حلت هذه المشكلة جزئياً باستيراد كميات من الأحجار من المناطق المجاورة, ولهذا السبب نجد ان منحوتات هذه الفترة صغيرة الحجوم, ولقد تعامل النحات مع جميع

أنواع الحجارة المستوردة على الرغم من تفاوت مرونتها ومطاوعتها في العمل الفني, فقد انتج الفنان منحوتات من الحجر الكلسي الهش ومن الرخام والبازلت والستياتيت الصلبة على حد سواء, اما اعمال النحاتين من المواد الأخرى كالخشب والعاج فكانت قليلة, وربما يرجع ذلك الى تلفها بسبب تعرضها للرطوبة بعد اندثارها في باطن الأرض.